Conference Proceedings: Enhancing the Role of Islamic, Social, and Human Studies in Building Society, Volume 23/1, July 2026.

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

اللغة الواصفة في المقالة الأدبية (١٩٠٠-١٩٥٠) مصر اختياراً

المدرس عقيل عبد الحسن جبر الفتلاوي

جامعة جابر بن حيان للعلوم الطبية والصيدلانية - كلية الطب.

الأستاذ الدكتور عبدالله حبيب كاظم التميمي

جامعة القادسية كلية التربية قسم اللغة العربية

Aqeel A.Jabr

Jabir Ibn Hayyan Medical University, College of Medicine, Kufa, Iraq

aqeel.abdalhussen@jmu

Abdallah Habeeb Kadhem AL-tamimi

Al-Qadisiyah University / College of Education / Department of Arabic Language

abdallah.Kadhem@qu. edu.iq

ملخص البحث :

تُعد اللغة الواصفة, من التجليات الفنية في المقالة الادبية, وهي من أبرز السمات الاسلوبية فيها, إذ يعتمد كاتب المقالة على الوصف, بوصفه اداة فاعلة في بناء الخطاب, وتشكيل الرؤية الفكرية والجمالية للنص, ولا تأتي اللغة الواصفة على نسق واحد, إنما تتنوع تبعاً لزاوية النظر والغاية التعبيرية, فتتجلى احياناً باللغة الواقعية, وأحياناً باللغة التخيلية, وأحياناً أخرى باللغة الفلسفية التأملية, وهذا ما سيكون محور حديثنا مع الامثلة والتحليل لبعض من رواد المقالة الادبية في النصف الاول من القرن العشرين

Abstract:

Descriptive language constitutes one of the principal artistic manifestations of the literary essay and represents one of its most distinctive stylistic features. Essayists employ description as a fundamental rhetorical device for constructing discourse and articulating the intellectual and aesthetic dimensions of the text. Far from being confined to a single mode, descriptive language assumes diverse forms according to the writer's perspective and expressive intent. It may manifest itself in realistic, imaginative, or philosophical-reflective modes of expression. This study examines these varied manifestations through analysis and illustration drawn from the works of leading pioneers of the literary essay during the first half of the twentieth century.

المقدمة

تقوم اللغة بدور حاسم في عملية الإدراك الادبي, فهي الوسيط الذي يهيئ لهذه التجربة الشعورية, واللغة كائن حي اجتماعي خاضعة لعوامل التطور والارتقاء, ويصفها القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) عند حديثه عن التطور في لغة الشعر بعد الاسلام, إذ يقول : " ... وعمدوا الى كل شيء ذي أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعاً, وألطفها من القلوب موقعاً, والى ما للعرب فيه من لغات, فاقتصروا على أسلسها وأشرفها "[١], ويعدها ابن خلدون (ت٨٠٨ هـ) فعلاً إنسانياً فيقول : " عبارة المتكلم عن مقصوده, وتلك العبارة فعل إنساني "[٢], وما دامت اللغة فعلاً انسانياً, فهي خاضعة للتأثر والتفاعل ولحتمية التطور .

التمهيد :

اللغة هي المادة الأولية للأدب, وهي بمثابة المصنع الاساس الذي تتحرك فيه طاقات الكاتب, فتبدع أشكالاً مختلفة من القول, وإن " التغيير في فنون الادب كافة يبدأ وينتهي بتتبع استعمالات اللغة وتحولاتها على أيدي الكتاب "[٣], فاللغة هي أصل الادب, لأنها " غالباً ما تستعمل لتمثيل

الكون المحيط بنا بحسب طريقتنا في رؤيته, ويتجلى ذلك بالخصوص في النصوص الادبية وفي الابداع الفني ..."[٤], فاللغة ليست مجرد وعاء للمعنى, انما هي جوهر الابداع ذاته, وهي الركيزة الاساس في بناء الخطاب الابداعي, لأنها الاداة التي يتوسل بها الاديب لتشكيل رؤيته للعالم, ونقل تجربته الشعورية والفكرية الى المتلقي, واللغة مادة جمالية فاعلة في الخطاب الادبي؛ لأنها تحمل الدلالة وتنتج المعنى وتشيد الاثر الفني .تكتسب اللغة في الخطاب الابداعي بعداً جمالياً من خلال الانزياح عن المألوف, وتوظيف الصور البلاغية والايقاع والتكرار والمجاز, فـ " اللغة بإمكانها أن تخلق معاني وارتباطات لم تكن مألوفة من قبل, وإن الظاهرة اللغوية أو البلاغية لا تحمل قيمة بمعزل عن بنائها وتركيبها, ولا يمكن ان تستوضح في حدود جزئية سابقة أو ان تدرك منفصلة عن حدة المعنى وقوته ونشاط السياق كثافته وتعقيده "[٥], فالاديب يعيد تشكيل اللغة اليومية ويمنحها طاقة ايحائية جديدة تجعلها قادرة على اثارة الدهشة وتحريك الخيال, وبهذا تتحول اللغة من اداة تقريرية الى بنية فنية قادرة على التأثير والاقناع .الحديث عن اللغة لا ينتهي ولا يقف عند حدود, وما يهمنا في دراستنا هذه هي اللغة الواصفة, والتي تعد من التجليات الفنية في المقالة الادبية, وهي من أبرز السمات الاسلوبية فيها, إذ يعتمد كاتب المقالة على الوصف, بوصفه اداة فاعلة في بناء الخطاب, وتشكيل الرؤية الفكرية والجمالية للنص, ولا تأتي اللغة الواصفة على نسق واحد, إنما تتنوع تبعاً لزاوية النظر والغاية التعبيرية, فتتجلى احياناً باللغة الواقعية, وأحياناً باللغة التخيلية, وأحياناً أخرى باللغة الفلسفية التأملية, وهذا ما سيكون محور حديثنا مع الامثلة والتحليل لبعض من رواد المقالة الادبية في النصف الاول من القرن العشرين .

المطلب الأول : اللغة الواقعية :

الواقعية هي مذهب فني اطلقت نسبة الى الواقع, ودلالتها اللغوية بمعنى تصوير الواقع والتعبير عنه, ويطلق عليها في الادب بـ (الادب الهادف) و (الفن للحياة) و(الالتزام في الادب), والاديب مرة يصور الواقع مجرد تصوير, ومرة يستهدف بتصويره اغراضاً اخرى[٦], ومقابل الادب الواقعي ظهر الادب الرومانسي الذي يؤمن في الانفراد بذاته والانطواء على آلام ربما لا يكون لها وجود في واقع حياته, واستعذب هذه الآلام, وأصبحت عنده غرضاً مقصوداً, ولجأ الى الطبيعة ليندمج فيها بعيداً عن الانسان, وليستمد منها معاني وأخيلة لا صلة لها بالحياة الواقعة .يرى الاديب الفرنسي (إميل زولا) وهو رائد الادب الواقعي " ان الادب الواقعي هو الذي يصور الواقع الثابت ويشخص امراض الجماعة, ويكشف عن العلل الكامنة وراء الظواهر التي تخضع لسلطان العلم, وانه لا ينبغي للاديب ان يقحم عواطفه الشخصية إلا في الظواهر التي لم يهتد الى تعليلها "[٧], وهذا المذهب من الادب اعتنقه كثير من الكتاب للتعبير عن الواقع بتصوير مباشر لحياة الانسان, ومن أهم خصائص الواقعية الطبيعية هو " وصف طبائع الانسان وحقائق الاشياء, أي الحياة الطبيعية, وتحويلها الى فن يطابق الواقع "[٨].لجأ كتاب المقالة الادبية الى اللغة الواصفة الواقعية, لأنهم يسعون الى نقل المشهد أو الفكرة نقلاً مباشراً قريباً من الواقع الذي يعيشون فيه, ويتوخى الكاتب في ذلك النقل الدقة في اختيار الالفاظ, وتصوير الظواهر الاجتماعية والثقافية كما هي بدون اضافات, مع وضوح التراكيب, والميل الى التقرير المدعوم بالايحاء, فاللغة الواقعية في المقالة الادبية لا تكتف بنقل الواقع وتصويره, إنما الكشف عن الابعاد النفسية والاجتماعية, إضافة الى ذلك تمنحه بعداً انسانياً, وظهرت هذه اللغة عند كتاب مثل : المنفلوطي , واحمد امين و احمد لطفي السيد و عبد الرحمن شكري و محمد حسين هيكل وغيرهم من كتاب عصر النهضة في النصف الاول من القرن العشرين, إذ يتكئ الوصف على الواقع, لكنه لا يخلو من لمسة وجدانية تجعل المقالة أقرب الى الادب منها الى التقرير الصحفي, وفي مقال للكاتب الكبير " احمد امين ", يصور به واقع الامة, إذ يقول : " ... لا أمل في الاصلاح حتى ينشط رجال الامة وشبانها للخدمة العامة, وأن يمتلئوا عقيدة بضرورة المساهمة في الاحسان بالمال والنشاط, وأن يطالبوا مطالبة حارة بتنظيم الاحسان حتى يؤدي غرضه على أكمل وجه مستطاع, اذن لرأينا البؤس في الامة يتضاءل الى حد كبير, ويحل محله كثير من الرخاء, ولرأينا المال ... الذي يضيع في الشرق سدى وقد اصبح دعامة للاصلاح, وسبباً من أكبر أسباب النهضة الحديثة ..."[٩], يصدر النص عن خطاب واصف واقعي, يسجل حالة اجتماعية, وينهض بوظيفة تفسيرية تقويمية, حين يصف واقع الامة وصفاً قائماً على الملاحظة الاجتماعية المباشرة, مبتعداً عن التخييل او التجريد الفلسفي, فهو يشخص حالة الجمود الاجتماعي, ويكشف عن اسباب التقاعس فيه, فالخطاب يرصد واقعاً قائماً على (البؤس – ضياع المال – غياب التنظيم), ويحدد عناصر انقاذ لهذا الواقع بـ (رجال الامة – الشبان – المال – الاحسان), ثم يعرض النتائج المتوقعة عرضاً سببياً واضحاً .ظهرت لغة " احمد امين " في هذا النص تقريرية مباشرة خالية من الزخرف البلاغي لكنها مشحونة بالدلالة, فهو يعالج حالة اجتماعية الغاية منها اصلاح الواقع, فكانت مبنية بناءً عقلانياً اصلاحياً, وتتجلى الواقعية في توجيه الخطاب نحو الجماعة والفرد, لأنها تخاطب وعي القارئ, فالوصف هنا ولد طاقة للمعنى وهذه الطاقة فاعلة داخل النص دفعت المقال الى غايته الاصلاحية, فحاججت وحرضت واصفة واقع البؤس والهدر في الاموال وحرضت نحو الاصلاح واستثمار الطاقات, ولم يكن الوصف حيادياً حيث امتزج المال بالاحسان لا بالاستهلاك وربط

التنظيم بالنهضة الحديثة, وتحويل الواقع السلبي الى امكانية ايجابية وبناء رؤية مستقبلية, اما قيمة الخطاب الواصف في النص فتكمن في المصداقية العالية؛ لأنه من يقف من الواقع والقوة التأثيرية للخطاب, ولأنه يخاطب العقل, والطاقة التداولية التي تدفع المتلقي الى التفكير, وأخذ دور في المنظومة الاجتماعية التي يعيش فيها, مثل هذا الخطاب نموذجاً ناضجاً للوصف الواقعي, فجعل من المقال اداة وعي وتغيير, فاللغة الواقعية هنا منحت النص قوة تأثيرية وحولت الوصف الى فعل فكري ينهض بالمجتمع ويؤسس لنهضة حديثة .اقتحمت الواقعية في الادب العربي عامة, وأدب المقال خاصة بصورة واضحة في كتابات الادباء, فكان لها حضور مائز عند كتاب النصف الاول من القرن العشرين ومن الكتاب الذين نقلوا الواقع بلغة بسيطة ومباشرة " مصطفى لطفي المنفلوطي", فقد عبر عن ذلك بخطاب مباشر في مقاله " افسدك قومك ", يقول فيه : " أيها المجرم الفاتك... شريكك في الجريمة ابوك ؛ لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك ، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين ... شريكك في الجريمة هذا المجتمع الانساني الفاسد الذي اغراك بها ومهد لك السبيل ، فقد كان يسميك شجاعا اذا قتلت وذكيا فطنا اذا سرقت وعالما اذا احتلت وعاقلا اذا خدعت... شريكك في الجريمة حكومتك ؛ لأنها كانت تعلم أن الجريمة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات ..."(١٠), ينتمي النص الى الخطاب الواصف ذي النزعة الواقعية الاخلاقية, لغة النص تعبر عن الواقع بعيدة عن الصورة المتخيلة, واصفة الجريمة وصفاً تحليلياً مع ذكر الاسباب الاجتماعية والتربوية والسياسية التي انتجتها, فالكاتب يرصد البيئة التي نشأ فيها المجرم, وقصور الاب في ابعاده عن اصدقاء السوء, وارباب الجريمة, فحدد الكاتب المقصرين وهم (الاب, المجتمع, الحكومة), وكلهم يتحملون المسؤولية تجاه هذا الفرد الذي قام بالجريمة, فاستعمل " المنفلوطي " لغة مباشرة صادقة اختلط الوصف الواقعي فيها لتعرية القيم الزائفة في المجتمع, فأستعمل ألفاظاً مألوفة حملت دلالات اخلاقية, أما الواقعية فقد تجلت في تسمية الاشياء بأسمائها, وربط السلوك الاجرامي بمصادره الاجتماعية, وتعرية الالقاب الزائفة التي صنعت من المجرم بطلاً (شجاعة , ذكاء , فطنة), اعتمد " المنفلوطي " في توجيه الخطاب اسلوباً مباشراً اضفى على الوصف شحنة انفعالية, لم تخرجه من الواقعية, انما زادته صدقاً وتأثيراً, مما حول الوصف الى فعل احتجاجي اشرك فيه القارئ ليكون شاهداً على محاكمة اجتماعية لكل الاطراف المشتركة, عبرت هذه اللغة الواقعية عن خطاب مشحون بطاقة اصلاحية اعطت للمقال قوة منتجة ومنحته عمقاً انسانياً وتأثيراً مستمراً غير منقطع .وفي مقال آخر للكاتب الكبير " لطفي السيد " يحاول بلغته الواقعية الواصفة تصوير مشهد من الحياة اليومية للفلاح المصري, حمل عنوان " جني القطن ", إذ يقول : "... يمشي رب العائلة إلى الغيط أمام عائلته وقلبه مملوء بالرجاء يرجو أن تكون ثمرة عمله السنوي وفيرة يؤدي المال ويدفع الايجار ويبقى له من ثمن القطن ما يفي بنفقاته، وكان هذا السرور الداخلي يطبع على وجهه سيما الرضا ويفيض على اخلاقه سعة الصدر، ينظر الى اهله وذويه نظرات بلطف وتشجيع، إذ يدعو لهم بالعافية فيقول: عوافي ..."(١١), الواقعية في هذا النص واضحة, فاللغة البسيطة والخطاب الواصف الاجتماعي الذي قدمه " لطفي السيد ", عبر عن مشهد من الحياة اليومية للفلاح المصري, لا فرداً معزولاً عن الجماعة, انما نموذجاً اجتماعياً عاماً, وهذه اللغة السردية الواقعية هيئت القارئ للدخول في النص لنقل صورة حية محسوسة من الريف المصري, عبر هذا النوع من الخطاب الواصف بلغته البسيطة عن فعل متكرر يقوم به الفلاح المصري بالنزول الى الارض, وصور لنا الحالة النفسية لدى الفلاح اثناء العمل وعلاقته الطيبة والمبنية على التعاون مع اسرته, وهذه اللغة البسيطة الشفافة بدت وكأنها لغة واعية خدمت الواقعية واضفت قيمة فنية للمقال, بأستعمالها لمفردات متداولة لدى العامة من الناس مثل : (الغيط, الايجار, النفقات, العافية), ما يدل على الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي يعيش فيه الفلاح المصري, ولا ننسى الحركة من خلال الافعال الحركية البسيطة وتصوير الداخل النفسي وأثره الخارجي, وقد منح هذا الوصف بهذه اللغة البسيطة الهادئة طاقة انسانية كامنة منحت النص عمقاً دلالياً, وهذه الطاقة تمثلت بالطاقة الشعورية, عندما يصف الحالة النفسية للفلاح, وطاقة اخلاقية تتمثل بالرضا وسعة الصدر واللطف والدعاء, مما حول الخطاب الى رسالة تعبر عن قيمة العمل في بناء الانسان والاسرة, ومن خلال هذا المقال الواقعي حاول " السيد" دمج البعد الاقتصادي بالبعد الانساني, وهذا المشهد البسيط من الريف المصري, انما هو مرآة لحياة طبقة كاملة تصلح ان تكون شاهداً حياً لواقع اجتماعي قد وصف في ادق تفاصيله .تلامس اللغة الواقعية قلوب القراء وتحرك مشاعرهم؛ لأنها تصور واقعاً اجتماعياً يعيشه الفرد, فتعرض المشكلة وتقترح الحلول وهذا الامر هو أقرب لحياة المجتمع وبساطة العيش, والكاتب خاصة في المقالة الادبية يوجه خطابه مباشرة من دون تزويق بلاغي, إذ نجد " عبد الرحمن شكري " في مقاله الموسوم " وسائل النجاح " يوجه خطاباً تعليمياً لقضية مهمة تلامس حياة الفرد وتنعكس على المجتمع عامةً, إذ يقول في مقاله : " **من العيوب التي حالت بيني وبين النجاح في كثير من أمور الحياة اني احتقر الأشياء الصغيرة ، فلا اتطلب معرفتها... ومن أجل ذلك كان الرجل الذي تمرس بأسباب النجاح لا يهمل شيئاً مهما صغر ، ولا يحتقر شيئاً مهما كان دقيقاً ، فلا تعرض عليه شيئاً من الأمور اليومية وحوادث الساعات إلا فصله وشرح لك كنهه ومصدره وقيمته...**"(١٢), امتازت لغة " عبد الرحمن شكري " بهذا المقال بأنها تقريرية واقعية خالية من التزيين البلاغي, قائمة على المصارحة, وتجلت الواقعية في لغته باستعمال

ضمير المتكلم لأثبات صدق التجربة, والانتقال من الخاص الى العام من دون افتعال, ومن ثم ربط المعرفة بالعمل والتجربة, فالنص يصف تجربة ذاتية صادقة تعبر عن اعتراف فردي, لتتحول الى قاعدة عامة في فهم النجاح والفشل, ان الوصف الواضح والواقعي الملموس للاخفاق واسبابه, وذكر العيوب العلمية والفكرية والسلوك السلبي لاحتقار الاشياء الصغيرة, يجعل من النص أكثر واقعية, وذا لغة بسيطة فيها طاقة دلالية ومعرفية تمثلت في تحليل مفهوم النجاح وعناصره الدقيقة, وأخذ نموذج مثالي للرجل الذي لا يترك ولا يهمل شيئاً مهما صغر, وهو بهذا يضع منهجاً عقلياً وسلوكياً للنجاح, وكذلك يعطي درساً تعليمياً مباشراً, حين يعرض نموذجاً للاخفاق وآخر للنجاح, وهنا يصبح الخطاب بلغته الواقعية البسيطة اداة تعليمية فعالة صادقة اغنت المقال ومنحته قيمة ارشادية وانسانية يصور الكاتب مشهداً من مشاهد الحياة اليومية, لكن هذا المشهد رغم لغته الواقعية البسيطة الا انه يحمل دلالات عميقة تلامس مشاعر القارئ وتشركه ليكون عنصراً فاعلاً لا متفرجاً فقط, وينقل لنا الكاتب الكبير " محمد حسين هيكل " في مقال له حمل عنوان " السفر " مشهداً للحظة وداع على سطح الباخرة, إذ يقول : " **... لم نكد نصعد فوق سطح الباخرة حتى كنا وسط لجة لا حد لها من المسافرين والمودعين... والناس يسيرون في كل جانب من جوانب المركب وإلى كل الجهات ينظرون في كل الوجوه يريدون ان يقولوا كلمة وداع لمن يعرفون ، والكلام والضحك والبكاء ووصايا الاباء و الأخوان وضجة الحمالين واصوات الصائحين ورج الآلات الرافعة جوف المركب ، كل ذلك مخلوطا بعضه ببعض يترك الحواس والقلب والنفس في حيرة واندهاش...**"[١٣], اعتدنا من خلال القراءة لما يكتبه "محمد حسين هيكل " في مقالاته على التصوير الدقيق للواقع وذكر ادق التفاصيل فيه, وهذه اللغة التصويرية التي تراكمت فيها التفاصيل الحسية, التجربة فيها تنتمي الى فضاء الواقع العياني, تتجلى الواقعية في هذا الخطاب المباشر في الاكثار من الافعال الحركية, وكذلك استدعاء الحواس السمعية والبصرية, مما اضفى على النص واقعية اكثر بحضور الصورة المعيشية, فالواقع هو من يتكلم, واعطت لغة النص البسيطة هذه طاقة حسية, حينما اشركت القارئ وادخلته داخل النص فاعلاً لا متفرجاً, كذلك منحت النص طاقة نفسية, فالوصف ترك أثراً داخلياً واضحاً, فعبر عن التوتر النفسي الذي يرافق لحظة الفراق والانتقال, ومما جعل لغة النص اكثر تأثيراً هو تراكم الوصف, فأختلاط الفرح بالحزن والضحك بالبكاء والنظام بالفوضى ولد دلالة عميقة مفادها ان السفر ليس فعلاً وانتقالاً مكانياً, إنما حالة وجودية مضطربة تتقاطع فيها المشاعر والذكريات والعلاقات الانسانية, فأصبح المشهد واصفاً حقيقياً للحياة المتحركة والمتقلبة, إذ مثل هذا النص بلغته الواقعية الواصفة وسيلة لاكتشاف الحالة الشعورية للإنسان في لحظة اضطراب, ومنحت المقال أهمية خاصة عندما سجلت مشهد السفر بكل تفاصيله من خلال هذا العرض لبعض المقالات الادبية, والتي عبر بها الكتاب بلغة واقعية واصفة, ان اللغة هي التي اسهمت بتحويل الوصف الى طاقة دلالية وفكرية مؤثرة, جعلت من المقال اداة فهم للواقع, ووسيلة وعي به, ودافعاً ضمنياً لتغييره عبر لغة صادقة تحاكي الحياة وتنبض بتجربتها الانسانية .

المطلب الثاني : اللغة التخيلية .

تسمح اللغة للكاتب بالهروب من الواقع بطريقة يصنعها هو, وتتمثل فيما ينتجه من أدب في قوالب لغوية يعكس انفعالاته وتجاربه وأحاسيسه, كما يستخدم الكاتب هذه اللغة للنأي بنفسه عن المسؤولية والايحاء للظواهر الاجتماعية بالنقد والرفض والتصحيح, ويرى ابن الاثير (٦٣٠هـ) ان " فائدة الكلام الخطابي هي اثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير "[١٤], ويرى بعض النقاد العرب ان التخييل خداعاً للعقل وضرباً من التزويق فالكاتب " يثبت امراً هو غير ثابت اصلاً ويدعي دعوة لا طريق الى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى "[١٥], فاللغة التخيلية هي اللغة التي تعتمد على الخيال في اعادة تشكيل الواقع, لا على نقله نقلاً حرفياً, وهي تستثمر ادوات البلاغة والتصوير من استعارة وتشبيه ورمز, بما يسمح بخلق صورة ذهنية تتجاوز المباشر والمألوف[١٦], ويرى حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) ان التخييل يقترن بالمحاكاة والايهام " إذ قد يتم تصوير الشيء وتخيله على غير ما هو عليه لأستدراج المتلقي "[١٧], ويرى ان التخييل يقع في الشعر في اربعة انحاء : " من جهة المعنى, ومن جهة الاسلوب, ومن جهة اللفظ, ومن جهة النظم والوزن "[١٨], وهذا ينطبق كذلك على النثر عدا ذلك النظم والوزن, "فالخيال يركب العالم في شكله العملي, وذلك لأنه في وظيفته الاولية يكون العالم الخاص بالحياة المألوفة ومتى شارفت هذه القوة في تولدها مستوى أعلى فأنها تكتسب قدرة على تحطيم العالم المألوف لتعيد بناءه مرة اخرى"[١٩], وهذا دور الكاتب في تشكيل اللغة ليتولد نمط لغوي قادر على تجسيد الفكرة في صورة, وشحنها بطاقة ايحائية فيتحول الخطاب من خطاب اخباري الى تجربة فنية تقوم على تصوير الاشياء والحالات والوقائع تصويراً حسياً أو نفسياً بحيث تعرض امام القارئ عرضاً يجعلها مرئية او محسوسة احتلت اللغة التخيلية الواصفة مكانة محورية في البناء الفني للمقالة الادبية الحديثة, فهي قادرة على تحويل الافكار المجردة الى صور نابضة بالحياة, وتجسيد القيم والمعاني في مشاهد حسية مؤثرة, ويأتي الخطاب الواصف بوصفه الاداة الابرز التي تفعل هذه اللغة, وتمنح المقالة طاقتها الدلالية والجمالية والاقناعية, وخير من مثل ذلك الكاتب الكبير " الرافعي " في مقاله الموسوم " حديث القمر ", إذ يقول : "**أيها القمر ... والأن وقد دقت صفحة السماء رقة المنديل ، أبلته قبل العاشق في بعاد طويل**

، أو هجر غير جميل ، وتلألأت النجوم كالابتسام الحائر على شفتي الحسناء البخيلة حيرة القطرة من الندى إذ تلمع في نور الضحى بين ورقتين من الورد، وأقبل الفضاء يشرق من أحد جوانبه كالقلب الحزين حين يتبع فيه الامل، ومرت النسمات بليلة كأنها قطع رقيقة تناثرت في الهواء من غمامة ممزقة، وأقبلت كل نفس شجية ترسل امالها إلى نفس اخرى كأن الآمال بينهما أحلام اليقضة، ونظر الحزين في نفسه، والعاشق في قلبه، ونام قوم قد خلت جنوبهم فليس لهم نفوس ولا قلوب، وليس الكون تاجه العظيم فأشرق عليه القمر ..."[٢٠] يعبر هذا النص عن الحالة الشعورية بلغة تخيلية واصفة لا اخبارية ولا تقريرية تقوم على الصورة والاستعارة والتشخيص وتؤدي وظيفة توجيهية للنص دلالياً ونفسياً, وظهرت ملامح اللغة التخيلية في تشخيص الطبيعة (الجمادات), وتحويل عناصرها الى كائنات حية تشارك الانسان وجدانه, فالسماء تشبه منديلاً مبللاً بدموع العاشق, وهو تشبيه تخيلي مركب فالسماء كائن حساس والرقة احساس انساني والبلل اثر البكاء, إذ وظف الوصف لتجسيد لوعة الفراق, وتتوالى الصور التخيلية والتي خلقت مناخاً شعورياً, فتشبيه النجوم بابتسام ووصف هذه الابتسامة بالحيرة وارتباطها بالحسناء البخيلة, وهنا يقصد البخل العاطفي وهذا التركيب من الوصف يعكس خفوت الضوء, والجمال الممتنع, والامل غير المكتمل, وكل هذه الدلالات تتفق مع الجو الوجداني للنص, وترتبط لغة النص بالحالة النفسية فهي غير منفصلة, اذ تربط الذات بالطبيعة بل تجعلها في حالة تماهٍ كامل, فالفضاء يوصف بالقلب الحزين, اذ عبر بالأشراق الجزئي على أنه أمل متردد, والقلب الحزين بالحالة النفسية الانسانية, وهذا ما منح النص عمقاً نصياً, وقد كان لهذه اللغة الواصفة أثر في توجيه النص, فـ " الرافعي " صور حاله نفسية, عبر فيها عن الحزن والحرمان وانتظار الامل, بهذه اللغة تحولت المقالة من وصف منظر الى خطاب وجداني, ولعل أهم ما يميز هذا النص هو اشراك القارئ به وجدانياً, فالصور بدت تقرأ حسياً لا بالعقل, والاحساس بما في النص والشعور به, فالقارئ يلتمس خيبة الامل والحيرة, ويجعل النص مفتوحاً للتأويل, ولا ننسى إن لهذه اللغة اثر في خلق نغمة شعورية متتابعة من حزن وترقب وعزلة, تعكس رؤية الكاتب الوجدانية, ويمكن القول ان هذه اللغة جاءت لتعبر عن بعد انساني كثيف الدلالة, فهي ليست تزييناً بلاغياً, إنما اداة فكرية وجمالية ربطت جسراً بين الذات والطبيعة, وانتاج مثل هذا الخطاب بهذه اللغة التخيلية الواصفة ينهض على الرمز والإيحاء لا على التقرير .يحتاج الكاتب اللغة التخيلية ليكون أكثر ارتباطاً بالواقع فـ " من غير العجيب .. ان يستلهم الادباء معنى الحياة من الحياة ذاتها, وان يبلغوا المشاركة الشعورية الحقة من وطأة التجارب ... فأكثر المشاهد اقتراباً من الحياة واقتراناً بالعيش الانساني هي أشدها حاجة الى اعمال الخيال "[٢١], وفي هذا الاتجاه سارت لغة " عبد الرحمن شكري " ففي مقاله " شعر الالوان والروائح " الذي يقول فيه : " **لشباب كثير الألوان، جم الروائح فهو حديقة من حدائق الربيع وروح من أروح الفردوس، وهو الحياة ولا حياة بعده، والالوان والروائح من اشد الأشياء إثارة للعواطف... ألم تر قط لونا بديعا أو رائحة زكية فأذكرتك حبيبا مضى وعهدا تقضى... وقد تنقلب الألوان في أيام الشقاء والتعاسة، فتصير جمرات مختلفة الالوان فتحس لهيبها في العين والقلب... أه ما اجمل الحياة التي يشم صاحبها منها رائحة الفل أو الياسمين أو البنفسج...** "[٢٢], يمثل هذا النص نموذجاً واضحاً لـ اللغة التخيلية الواصفة في المقالة الوجدانية عند "عبد الرحمن شكري", اذ تقوم رؤيته على ربط التجربة الانسانية بالحواس وخاصة حاستي البصر والشم, فتتحول المدركات الحسية الى رموز نفسية ودلالات وجدانية توجه الزمن نحو التأمل في الشباب والحياة والذاكرة, وتتمثل اللغة التخيلية الواصفة في النص في بناء الصورة المركزية فيتحول الشباب الى صديق أو روح فردوسية باستعارة مكانية, وكأنها تقول لنا ان الشباب ليس عمراً زمنياً, وانما تجربة حسية شعورية, كما ان هذه اللغة وظفت الحواس فأصبحت قائمة على التراسل الحسي, فاللون عبر عن الشعور والرائحة التي شكلت ذكرى, والاحساس عبر عن الوجدان, فالكاتب لا يصف اللون والرائحة لذاتهما, إنما يقدمهما بوصفهما مفاتيح نفسية تستدعي الماضي والحنين والفقد, وترتبط الصورة التخيلية بالذاكرة والانفعال, فالانتقال من الحس الى الذاكرة, ومن المشاهدة الى الاستدعاء النفسي لتكون اللغة التخيلية صورة ايحائية لا في زخرفها, إنما تقدم الألوان والروائح بوصفهما جسوراً بين الحاضر والمستقبل, ومن مظاهر التخيل الواصف في النص هو ان يتحول اللون الدال على الفرح ليكون جمر الاحساس بلهيبها ولا تراه العين, والقلب يحترق مما يعكس اثر الحالة النفسية في اعادة تشكيل الواقع الحسي ويتجلى اثر اللغة التخيلية الواصفة في النص حين تسهم في نقل النص من وصف الشباب وصفاً ايدلوجياً الى تأمله بوصفه حالة شعورية زائلة, كما ان لهذه اللغة اثراً في تعميق العلاقة بين الذات والعالم, فجعلت من العالم الخارجي امتدادا للذات وانعكاساً للحالة النفسية, فالألوان والروائح لا تملك دلالة ثابتة إنما تتبدل بتبدل التجربة الانسانية, ويمكن القول إن الكاتب نجح في بناء نص وصفي تخيلي جعل من اللون والرائحة لغة للنفس قبل ان يكونا عنصريين من عناصر الطبيعة .يفضل الاديب استعمال الخيال في معالجة الموضوعات, من خلال قدرته الفنية في تصوير الاحداث والاماكن والاشخاص, " فالأديب يشعر بالتأثر مع المواقف التي يبتدعها خياله وكثيراً ما يجاري المناسبات المحزنة أو المناسبات المفرحة بمشاعره حتى يقوى على سبك الاسلوب والحوار والنسق العام للاحداث "[٢٣], فالأديب كالرسام يصنع بريشته وألوانه لوحة فنية تحمل في طياتها دلالات وصور تخيلية قابلة للتأويل, ولعل " المازني " حين يتحفنا بمقال أدبي حمل عنوان " ليلة**

بين الصحراء والمقابر " مزج فيه بين الواقع والخيال والفلسفة الوجودية, إذ يقول فيه : " **هي ليلة حالكة متراكمة الظلمة، وفي الصدر ضيق، فأين عن صحوتي أعدي ؟ صحرائي التي لا يلقط فيها الطير حبا، ولا يجاوب في صحرائي قلب قلبا، ولا يغيرها صيف ولا شتاء، ولا يدوم عليها إلا العفاء ؟ ... وقالت الرمال لي وأنا أقتلع منها رجلي اقتلاعاً إذا اخبط في الصحراء والريح تجذب أطراف الرداء : بودي لو تماسكت حباتي، وثبتت ذراتي، ولانت مواطئي لقدميك، ولكني مثلك لا حيلة لي فيما قضى به ! ...**"[٢٤], يؤمن المازني من خلال هذا النص بالعجز الانساني والمصير المحتوم فاللغة التخيلية الواصفة للنص ذات نزعة وجودية ساخرة, فحول الصحراء من مكان جغرافي الى رمز نفسي وجودي بلغة جعلت من الطبيعة طرفاً محاوراً للذات القلقة, وتجلت اللغة التخيلية الواصفة في تكثيف الوصف (الظلمة) ظلمة خارجية, (الليل) وظلمة داخلية, (ضيق الصدر), وهو وصف حالة نفسية, وتحويل الصحراء الى صورة للفراغ والعجز فلا حياة فيها (نفي) لاطير ياكل فيها, ووصفها كمكان للعزلة الوجودية, فاللغة نطقت بالحرمان المطلق, الوحدة والجدب العاطفي, والانقطاع عدم التواصل, فاستعمال الاستعارة لحوار مع الرمال منحت الرمال صوتاً ووعياً وقدرةً على الاعتراف بالعجز, أي استنطاق الرمال, فجعل منها صورة للأنسان نفسه وتطابقاً بين الانسان والطبيعة والمصير, وهذه الصورة التي نقلها إنما هي صورة حسية دالة على المعاناة, من خلال صعوبة الحركة وصعوبة السير وهي صورة تخيلية تتجاوز الوصف الواقعي لتعبر عن ثقل الوجود والمشقة والصراع مع النفس .استطاع الكاتب في توجيه النص بلغته التخيلية الواصفة, فالصحراء والمقابر شكلت اطاراً رمزياً لفكرة الفناء والعدم, إذ جسدت اللغة حالة الاغتراب من خلال النفي والظلمة والحوار مع الجماد, فاللغة جعلت من المكان امتداداً للذات, وصارت الذات انعكاساً للمكان, وهو ما حقق وحدة دلالية, والذي يميز لغة المازني هو ميله الى السخرية السوداء الهادئة, وعمق الدلالة وكثرة الايحاء من خلال اشراك الطبيعة وجعلها شريكاً في المصير, ويمكن القول إن المازني استطاع أن يحول خطابه التخيلي الواصف هذا الى صراع وجودي تساوت فيه الطبيعة مع النفس البشرية في المصير يعد الخيال ضرورة لأستكمال النقص, فهو ليس مجرد قدرة على خلق الاحداث والوقائع, إنما هو براعة تصويرية للمشاكل المسلسلة في سير المقالة, ووصف الاماكن والحالات الشعورية التي تنتاب الاشخاص كالغضب والضيق والضجر والتبلد, ومن الكتاب الذين امتزجت مقالاتهم بين السخرية والنقد والفلسفة والتخييل الواصف الكاتب الكبير " توفيق الحكيم ", فهو ينقل لنا في مقاله "حماري والطوفان" بلغة ساخرة وخيال واصف, قضية مجتمعية فيقول : " **جلس حماري إلى جواري كما اعتاد ، وقال : اخشى أن تثور كبرياؤك ذات يوم فترفع عن مجالسة مثلي! ... قالها بنبرة أعرفها في صوته... فأجبته : وأنا اخشى أن يركبك الوهم، فتحسب أن لا فرق بيني وبينك! ... لا تخف... أن الوهم لا يركبني أبدا... لم يركبني غير الواهمين! ... من امثالنا معشر البشر! ... أليس هذا ما تعني ؟ ... ما اردت أن امس كرامتك... أن بيننا وبينكم صلات ود من قديم... لقد زاملناكم، وركبنا معكم سفينة نوح في عهد الطوفان ... فأدركت غرضه الخفي من الاشارة الى هذا المستند التاريخي...**"[٢٥], عرف عن " الحكيم " في مقالاته النقد الساخر, وفي هذا المقال ذي اللغة التخيلية الواصفة, جعل من التخييل اداة فكرية لتوجيه الدلالة وبناء موقف نقدي من الانسان والمجتمع, إذ اتخذ من الحمار قناعاً تخيلياً للحوار مع الذات والواقع, فقامت اللغة على التشخيص والمفارقة والرمز, والغاية منها نقدية واضحة, وتمثلت اللغة التخيلية الواصفة في النص في اعطاء الحيوان دوراً ومنحه وعياً ولساناً, وهو يناقش ويجلس ويخشى, واراد بذلك قول شيء بصورة غير مباشرة عن الانسان, فخلق مسافة رمزية سمحت له بذلك, وكذلك قامت اللغة على المفارقة والسخرية بين المتكلم (الانسان) والمخاطب (الحمار), فهو لا يريد وصف الحمار لذاته, انما يصف وهم الانسان, فالمفارقة تجلت في ظاهر النص عندما يدافع عن التفوق الانساني, وباطن النص الذي يشكك بهذا التفوق, فاللغة التخيلية للنص لم تكن غاية جمالية, انما هي اداة فكرية توجيهية, من خلال ذلك وجه " الحكيم " مساءلة للانسان وفكك اوهامه وقدم رؤية ساخرة عميقة لطبيعة العلاقة بين العقل والغرور يستلهم الادباء معنى الحياة من الحياة ذاتها, فالعمل الادبي يبقى متمسكاً بجذور الحياة متكئاً على التصور والتخييل لبناء نص ناضج ومتكامل يؤثر في المتلقي ويشركه في الموضوع ليكون جزءً من النص, ومن المعروف ان اللغة التخيلية هي اقرب الى المتلقي فيتفاعل مع هذه اللغة, وهذا يعود الى الاديب لجعلها مشوقة للقارئ, ويدخل الكاتب " زكي نجيب محمود " القارئ في اجواء تخيلية في مقاله الموسوم بـ " ثورة في خزانة الكتب ", يقول : " **... وسبحت في عالم الرؤى فماذا رأيت ؟ رأيتني حاكما في دولة أصرف امور شعبها... اما دولتي فمداها بناء ضخم ذو طبقات ثلاث، ... واما رعيتي فكانت بضع مئات قليلة من أمساخ لا تطمئن لها العين، ما كدت اباشر شئونها حتى ادركت أنها كتبي قد اصابها في اضغاث الأحلام هذا المسخ والتشويه، فقد رأيتها كائنات حية ليست كالتي عهدت من كائنات، يتألف واحدها من لسان غليظ طويل في فم ضخم بشع، ولكل منها جناحان بعضهما يستطيع بهما الطيران وبعضهما لا يستطيع، وأحسب أن اللسان قد غلظ فيهما وطال....**"[٢٦], ينقل الكاتب صورة مجردة بأسلوب الرؤيا عن علاقته بكتبه, ليحول الواقع الى عالم تخيلي صور فيه الكتب على انها كائنات حيه في مملكة خيالية, استعمل فيها اللغة التخيلية الواصفة, وذلك بتوظيف الاستعارة والتشبيه, فهو يشبه المكتبة بدولة أو مملكة وهو حاكمها والمباشر في ادارتها, كذلك شبه الكتب

على إنها رعايا هذه المملكة وكأنهم مشوهين امساخاً, ذا صور بشعة لا تطمئن لهم العين, كان لهذه اللغة أثر كبير في تحويل النص من مقالة نقدية جافة, الى قصة رمزية جذابة استدرجت القارئ ليدخل عالم الخيال ليفهم الفكرة, أراد الكاتب من خلال تشويه الكتب ووصفها بالكائنات البشعة ان ينقل رسالة نقدية قوية عن حال الثقافة والمعرفة, كما اراد من خلال وصف المملكة وعلاقتها بالرعية ان يخلق تمثيلاً كاملاً لعلاقة المثقف بتراثه الفكري, لقد نجح الكاتب في تحويل المفاهيم المجردة الى صور حية, ويمكن القول ان الكاتب برع في توظيف اللغة التخيلية لنقل رؤيته لواقع الثقافة والمعرفة, وجعل هذه اللغة وسيلة فعالة لنقل الافكار الفلسفية والنقدية بطريقة فنية تلامس وجدان القارئ وعقله في آن واحد . ويمكن القول أن اللغة التخيلية الواصفة اداة فنية اسهمت في بناء المقالة الادبية, وتوجيه النص نحو دلالته المرجوة, وكذلك لما لها من تأثير في المتلقي عبر جذبه وتشويقه واشراكه في التخييل والتحليل والتأويل, وما دامت هذه اللغة هي التي تميز كاتبها واسلوبهم في المقالة الادبية, فقد كان لكل كاتب اسلوبه في رسم هذه اللغة التخيلية لتلامس الواقع وقضايا المجتمع بصورة عامة, وهناك مقالات لكتاب كبار حملت لغة تخيلية[٢٧]

المطلب الثالث : اللغة الفلسفية .

لم يعد الادب بمعناه التقليدي حكراً على الخيال واللغة والاحساس, انما صار ساحة تلتقي فيها الفكرة الفلسفية بالصياغة الادبية, فالاديب استعان بأدوات الفلسفة ومنطقها وأسئلتها الوجودية لصنع أعمال أدبية ذات بنية فكرية فلسفية عميقة, والعلاقة بين الادب والفلسفة علاقة تداخل وتلاقٍ معرفي, إذ يستخدم الادب التخيل والمجاز لإيصال حكمة فلسفية, بينما تستعين الفلسفة أحياناً بالرؤية الادبية لتجسيد افكارها في صورة ذات إيحاء فني[٢٨]منحت الفلسفة الاديب سعة في المخيلة وجرأة في الطرح؛ لأن الادب محدود في موضوعاته, بينما الفلسفة تتناول المنطق والمعرفة والاخلاق وما وراء الطبيعة, وتعد الفلسفة الاداة التي أضافت العمق للكتابات الادبية, فتوظيف الفكر الفلسفي يمنح النص بعداً, ويكون نصاً مغايراً يجمع بين الوجود والانسان بلغة قريبة من الناس[٢٩]تقف الفلسفة وسيطاً بين الفكرة والتعبير مانحة اللغة بعداً جديداً, إذ يتحول النص الادبي من مساحة سردية الى فضاء للتأمل والسؤال, وهنا تلتقي الفلسفة والادب في نقطة مشتركة هي فهم الانسان وتفسير العالم, وقد منحت الفلسفة النص الادبي عمقاً لغوياً, وشحنت المتلقي بالتأمل والتشويق, إذ اسهمت في رسم صورة الانسان داخل النص التأملي بطريقة أعمق وأكثر واقعية, وأضفت على النص سحراً فكرياً يجذب القارئ ويدفعه الى التفاعل والتأمل, والكتابة الادبية التي تتقاطع مع الفكر الفلسفي تمتلك قدرة لغوية أعلى؛ لأن الفلسفة تضيف للنص بعداً تحليلياً وصورة أكثر اكتمالاً للانسان في أبعاده الشعورية والفكرية, وان الاديب الذي يوظف الفلسفة بذكاء يخلق نصاً مشوقاً يثير القارئ ويجعله جزءاً من التجربة الابداعية لا مجرد متلق سلبي, إذ تتحول الفكرة الى احساس والمعنى الى تجربة انسانية متكاملة[٣٠]يؤمن كتاب المقالة الادبية, ان الفلسفة توفر المادة الفكرية لهم والكاتب من يمنح النص شكلاً فنياً نابضاً بالحياة, ومن كتاب المقالة الفلسفية الكاتب الكبير "الدكتور طه حسين ", والذي جمع بأسلوبه بين الابداع الفني والتأمل العقلي, إذ شكلت مقالاته خطاباً واصفاً ذا بعد فلسفي عميق, يتجاوز الوصف الخارجي الى مساءلة العقل والوعي والوجود, وتتجلى هذه اللغة في مقاله الموسوم بـ " سمير الليل " حين يقدم لنا شخصية مأزومة تعيش بين العقل واللا عقل, يقول فيها : " **... لا تكلف نفسك مشقة ولا جهدا فلن يتاح لك حل هذا اللغز بالمشقة والجهد ولا بالرؤية المتصلة والتفكير الطويل... فأنت ترى صاحبنا اعجوبة من اعاجيب الدهر وغريبة من غرائب الزمان تجلس إليه فلا تكاد تسمع منه صوابا ولا تكاد تفهم عنه شيئاً وتتحدث اليه فلا يفهم عنك إلا ايسر ما تقول ولا يكاد يرد عليك رجع الحديث حتى يأخذك شيء من العجب لأنك لا تدري اتتحدث الى عاقل ام تتحدث الى مجنون**"[٣١], حمل النص خطاباً واصفاً مبنياً على التشكيك المعرفي والمفارقة الفكرية والثنائية الفلسفية, فالكاتب اراد من الوصف زعزعة اليقين لدى المتلقي واشركه في عملية التفكير, وحوله الى سؤال وجودي, وتتجلى اللغة الفلسفية اكثر في ثنائية النور والظلمة ودلالتهما, فالظلمة ليست حسية فقط انما معرفية وروحية, البصر مثل الجانب الحسي والبصيرة مثلت العقل وكلاهما اشارا الى فساد الحياة الروحية وتعطيل العقل, وهو ما يسمى بالوعي الزائف, عبر عن ذلك بقوله : " **... قال صاحبي : هيهات وكيف تستقيم الامور لرجل يسامر ظلمة الليل التي تعشى الابصار وظلمة الخمر التي تغشى البصائر. الم انبئك بأن حبه لهذه الظلمات قد افسد عليه حياته الروحية ودفعه الى الاسراف في سوء الظن بنفسه وبالناس**"[٣٢], منحت هذه اللغة المقالة الادبية عمقاً دلالياً وطاقة تأويلية فسحت للقارئ مساحة للتفكير والتأمل, كما اضفت على النص بعدا انسانياً شاملاً كشفت التناقض الانساني مما جعل النص ذا قيمة ادبية وفكرية خالدة .لا تقتصر اللغة على وصف الظاهر, انما تتخذ منه جسراً للنفاذ الى الباطن فتغدو الالفاظ محملة بدلالات وجودية واخلاقية, ويتحول الوصف الى وسيلة للتفكير الفلسفي في الانسان ومصيره, ومن المقالات الفلسفية ذات اللغة الواصفة مقالة للكاتب الكبير " مصطفى لطفي المنفلوطي " " السريرة " , يقول فيها : " **لو كشفت للإنسان عن سريرة الأنسان لرأى منها ما يرى من غرائب هذا الكون وعجائبه، أعمى أدركته رحمة الله بعد طول محنته فأرتد بصيرا تتراءى لك السريرة ظاهرها كأنها أديم السماء أو صفحة الماء، فأن بدا لك أن تكتنه باطنها فأنك غير بالغ من ذلك مآربك إلا إذا استطعت أن تخترق السماء**

فترى ما وراءها من بدائع الكائنات وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات "[٣٣], يؤسس الكاتب لخطاب واصف بلغة فلسفية قائمة على التشبيه الكوني, الذي يربط الانسان بالكون, وكذلك المقاربة الرمزية للنفس الانسانية, فهذا الامر يجعل القارئ يتدرج من الادراك الحسي الى التأمل العقلي, فتحولت السريرة من مفهومها الاخلاقي الى ظاهرة كونية, فالوصف هنا اسهم في توسيع الدلالة وربط النفس الانسانية بالكون اللامتناهي, والايحاء بأن الانسان عالم قائم بذاته, وتتجلى اكثر اللغة الفلسفية الواصفة في ذكره للعمى والمقصود به الجهل بحقيقة الذات, والبصر وهو انكشاف الباطن, فأصبحت اللغة الواصفة اداة للتحول المعرفي والتدرج فيها, وتوجيه المعنى نحو فكرة الاستنارة الداخلية, ويتحول الوصف الى لغة فلسفية عبر بها الكاتب عن عجز الانسان عن الاحاطة التامة بالنفس, وان المعرفة مهما علت وتقدمت تبقى معرفة نسبية وبذلك يوجه الخطاب المعنى نحو التواضع العلمي والمعرفي وهو مبدأ فلسفي واخلاقي, وهنا لا بد من القول ان الكاتب قد جعل من الوصف خطاباً فكرياً موجهاً للمعنى, فالسريرة لغز وجودي معقد يستحيل الاحاطة به, مما جعل من المقالة نصاً فلسفياً تأملياً ذا طابع انساني عميق .شهدت المقالة الادبية في العصر الحديث تحولاً نوعياً, فلم تعد مجرد تعبير انشائي أو تصوير واقعي, انما غدت فضاءً للتأمل الذاتي والفكري ومن الكتاب الذين امتزجت لغتهم المقالية بالتجربة الشخصية مع اللغة الفلسفية الكاتب الكبير " ابراهيم عبد القادر المازني " وتجلى ذلك بمقالته الادبية الموسومة " في طريق الحياة " , إذ يقول فيها : "**... كأني مغرب عن الناس وأن الذي بيني وبينهم خراب لا عمار فيه، وكنت اتصور الحياة معنى لا ألمس له حقيقة ولا أضع يدي على صور لها محسوسة، وكان فهمي للحياة واحساسي بوقعها عن طريق النظر في جوانب نفسي، وذلك لأني اعتدت ارد عيني عن النظر إلى ما هو امامي وان اديرها في سريرتي، وكانت تجاربي هي ما تمثله الكتب لإحساسي وتحضره لذهني وتكشف لي عنه من وجوه الألم والحزن والخطأ والاثم...**"[٣٤], تداخلت التجربة الشخصية مع الرؤية الفلسفية لدى الكاتب, فجعل من المقالة الادبية وسيلة للكشف عن القلق الوجودي ومساءلة معنى الحياة, وتحليل الذات الانسانية من الداخل, وامتازت اللغة الفلسفية الواصفة بأنها تنطلق من الوصف ولا تقف عند حد التصوير الخارجي فقط, انما تتوسل بالتأمل وتستند الى التجربة الذاتية, وتسعى الى الكشف عن المعنى الكامن خلف الظواهر, وهي بذلك تعد لغة تأملية قادرة على تحويل الخطاب الادبي الى خطاب فكري ذي ابعاد فلسفية, فاللغة لا تصف حالة اجتماعية, انما تعبر عن اغتراب وجودي يجعل الانسان معزولاً داخل ذاته, فمن خلال هذا المقال تحول الوصف فيه الى تعريف فلسفي سلبي للحياة, فهو يشكك في الامكان من التوصل الى الحقيقة والامساك بها, إذ جعل من نفسه مرجعاً للمعرفة, فالخطاب الواصف يؤسس لرؤية ذاتية معرفية ترى ان فهم العالم لا يتم الا عبر فهم الذات, وتبلغ اللغة الفلسفية الواصفة ذروتها حين يكون الكتاب بديلاً وجودياً للتجربة الحياتية, لا اداة معرفية فقط, وتمتزج الثقافة بالألم والوعي بالخطأ والاثم, وهنا نجد ان المقالة الادبية قد تحولت بهذه اللغة الى مساحة للاعتراف الوجودي والتأمل في معنى الحياة, وكشف اغتراب الذات, ومنحت اللغة النص قيمة ادبية وفلسفية راسخة في مسار الخطاب الادبي مثلت المقالة الادبية في مطلع القرن العشرين مجالاً خصباً للتعبير عن القلق الفكري والاضطراب النفسي الذي رافق تحولات الانسان العربي الحديث, إذ اتخذ بعض الكتاب من المقالة منبراً للتأمل الفلسفي في قضايا الوجود والمصير والحرية, ومنهم الكاتب الكبير " عبد الرحمن شكري ", إذ اتسمت كتاباته بنزعة تأملية عميقة, وبميل واضح الى تشريح النفس الانسانية في لحظات ازمتها القصوى, ففي مقاله "خواطر الانتحار ", والذي يعد من النصوص الفلسفية الواصفة يتحول الوصف عنده الى خطاب فكري يعبر عن صراع الانسان مع القدر يقول فيه : " **يرى المرء ما فيه خيره، فلا يقدر أن يدركه، ويرى ما فيه ضره فلا يقدر أن يتجنبه، ويريد أن يكسر قيود القضاء، وان يكون مخيرا فلا يقدر، ويوجعه عض تلك القيود التي هي كالذئاب المفترسة، ويؤلمه نهشها حتى يصرخ صرخات تجرح الحلق وتخرج بالدم، كأني به قد جرى مع الصبا سلس العنان، فأحيى الليل وامات النهار، وفعل ما يفعل المرء في شبابه، من تصيد اللذات، بفعل ذلك من اول الامر خلسة حتى تصير عادة محبوبة ويبلغ من حب الخمر واللذات الجنون...**"[٣٥], يمثل هذا النص بلغته الفلسفية الواصفة عجز الارادة لدى الانسان, وانكسار الذات امام قسوة الوجود, يقوم الوصف على مفارقة فلسفية جوهرية وهي ان المعرفة لا تقود بالضرورة الى الفعل, والوعي لا يساوي القدرة, وبذلك تكون هذه النظرة التشاؤمية التي ترى ان الانسان عاجز عن توجيه مصيره, وتجلى البعد الفلسفي في تصوير الصراع بين الارادة الانسانية والقدر, واظهار الاحساس بالعجز, فالخطاب لا يقرر موقفاً عقائدياً, انما يصف الاحساس النفسي بالجبر, وهو ما يدخل في فهم فلسفي ديني مباشر, وتظهر اللغة الفلسفية الواصفة اكثر في تحويل المفهوم المجرد الى صورة حسية مما يعمق الاثر ويشرك القارئ فيه, فعندما يبلغ الالم حده الاقصى تكون الصرخة رمزاً لأنهيار اللغة نفسها امام الالم, وهو ما يوحي بمأساوية الوجود الانساني, وهذا الامر يؤدي في النهاية الى الانزلاق الى اللذة هروباً من القلق, وهذا الانغماس في اللذات ليس متعة, انما هو انحدار اخلاقي, وبذلك تكون اللغة قد حققت التوازن بين الوعي والفعل, ومنحت النص بعداً فلسفياً واخلاقياً ذا قيمة ادبية .

الخاتمة

من الواضح والجلي ان اللغة هي الركيزة الاساسية في بناء المقالة الادبية, وان اختلاف انماطها بين الواقعية والتخيلية والفلسفية ليس اختلافاً شكلياً, انما هو اختلاف وظيفي وجمالي يعكس طبيعة الخطاب الواصف ودوره في توجيه المعنى, فبقدر ما تكون اللغة واعية بذاتها ووظيفتها, تكون المقالة أعمق أثراً وأكثر قدرة على التعبير عن الانسان وقضاياه المصيرية .خلصت هذه الدراسة إلى أن اللغة الواصفة في المقالة الأدبية العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين لم تكن مجرد أداة لنقل الصور والمشاهد، بل مثّلت نسقاً تعبيرياً متكاملاً أسهم في تشكيل الرؤية الفكرية والجمالية لرواد المقالة. وقد تجلت هذه اللغة في ثلاثة أنماط رئيسة هي: الواقعية، والتخيلية، والفلسفية، حيث أدى كل نمط منها دوراً خاصاً في بناء الخطاب الواصف وإثراء دلالاته. فاللغة الواقعية قرّبت القارئ من معطيات الواقع وتفاصيله، واللغة التخيلية منحت الوصف بعده الفني والإيحائي، في حين أضفت اللغة الفلسفية عمقاً تأملياً كشف عن أبعاد المعنى الكامنة وراء الظواهر والأشياء.ومن ثمّ يتضح أن الخطاب الواصف في المقالة الأدبية النهضوية كان فضاءً رحباً تفاعلت فيه الرؤية الفكرية مع الحس الجمالي، فأسهم في ترسيخ مكانة المقالة الأدبية بوصفها جنساً قادراً على الجمع بين متعة الفن وثراء الفكر، وبين تصوير الواقع واستشراف آفاقه الإنسانية والحضارية .

الهوامش :

١- الوساطة بين المتنبي وخصومه , القاضي الجرجاني , تحقيق : احمد عارف الزين , مطبعة العرفان , صيدا , ١٣٣١هـ .

٢- مقدمة ابن خلدون : ٥٤٦ .

٣- التجريب في الخطاب النقدي الادبي الحديث , لطفي محمود الغريري : ٦٧ . (اطروحة دكتوراه) .

٤- السيميائية وفلسفة اللغة , أمبرتو إيكو , ترجمة : د. احمد الصمعي , المنظمة العربية للترجمة , مركز دراسات الوحدة العربية , ط١ , بيروت , ٢٠٠٥ : ٢٥ .

٥- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي, د. ثامر سلوم, دار الحوار للنشر والتوزيع,ط١, سورية, ١٩٨٣: ٩

٦- ينظر : الواقعية في الادب , عباس خضر , دار الجمهورية , بغداد ١٩٦٧: ٣ -٤.

٧- الواقعية في الادب , عباس خضر : ٨ .

٨- الواقعية في الادب , عباس خضر : ٨ .

٩- فيض الخاطر , احمد امين : ٢: ٨٢ .

١٠- النظرات , مصطفى لطفي المنفلوطي : ١ : ١٥٣ .

١١- تأملات , لطفي السيد : ٢٥ .

١٢- المجموعة الكاملة لمؤلفات عبد الرحمن شكري , كتاب الاعتراف : ٥١ .

١٣- من مذكرات الشباب , محمد حسين هيكل : ١١ .

١٤- المثل السائر , ابن الاثير : ١ : ٦٣ .

١٥- اسرار البلاغة , عبد القاهر الجرجاني : ٣١١ .

١٦- ينظر : دلائل الاعجاز , عبد القاهر الجرجاني : ٩٨ .

١٧- منهاج البلغاء وسراج الادباء , حازم القرطاجني : ٨١ .

١٨- منهاج البلغاء وسراج الادباء , حازم القرطاجني : ٨٩ .

١٩- الخيال مفهوماته ووظائفه , عاطف جودة نصر , الهيئة المصرية العامة للكتاب , ١٩٨٤ : ٢٤٣ , وينظر : الخيال الشعري في القصائد العشر الطوال , عمار حازم محمد علي الشاهر , كلية الاداب جامعة الموصل (اطروحة دكتوراه) : ١٧ .

٢٠- حديث القمر , مصطفى صادق الرافعي : ١٠ .

٢١- الخيال الحركي في الادب النقدي , د. عبد الفتاح الديدي , الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٩٠ : ١٤.

٢٢- المجموعة الكاملة لمؤلفات عبد الرحمن شكري , كتاب الاعتراف : ٣٦ .

٢٣- الخيال الحركي في الادب النقدي , د. عبد الفتاح الديدي : ١٤ .

٢٤- قبض الريح , ابراهيم عبد القادر المازني : ٧١ .

٢٥- حماري قال لي , توفيق الحكيم : ١٦

٢٦- جنة العبيط , زكي نجيب محمود : ٢٧ .

٢٧- مقال (حديث الاوز) , جنة الحيوان , طه حسين ؛ مقال (من وحي البحر) , فيض الخاطر , احمد امين : ٢|٢ ؛ مقال (نورا) , في ضوء الرسالة , الزيات : ١٣٨ ؛ مقال (مدينة السعادة) , النظرات , المنفلوطي : ١|٩٩ .

٢٨- ينظر : علاقة الادب بالفلسفة , د. ادريس الذهبي , كلية الاداب والعلوم الانسانية, جامعة سيدي محمد بن عبد الله , ظهر – المهراز – فاس : ٧ .

٢٩- ينظر : حول العلاقة بين الفلسفة والادب , الفاهم محمد , مجلة فكر الثقافية , العدد(٤٣) , أبريل ٢٠٢٥

٣٠- ينظر : علاقة الادب بالفلسفة , د. ادريس الذهبي : ٨-٩ .

٣١- جنة الحيوان , طه حسين : ٧٨ .

٣٢- جنة الحيوان , طه حسين : ٨٤ .

٣٣- النظرات , مصطفى لطفي المنفلوطي : ٢٠١ .

٣٤- سبيل الحياة , ابراهيم عبد القادر المازني : ٢٩ .

٣٥- المجموعة الكاملة لمؤلفات عبد الرحمن شكري , كتاب الاعتراف : ٦٠ .

قائمة المصادر والمراجع :

١- الوساطة بين المتنبي وخصومه , القاضي الجرجاني , تحقيق : احمد عارف الزين , مطبعة العرفان , صيدا , ١٣٣١هـ .

٢- مقدمة ابن خلدون, عبد الرحمن ابن خلدون , تحقيق : عبدالله محمد الدرويش , دار يعرب , ط١ , دمشق , ٢٠٠٤م .

٣- التجريب في الخطاب النقدي الادبي الحديث , لطفي محمود الغريري : ٦٧(اطروحة دكتوراه)

٤- التجريب في الخطاب النقدي الادبي الحديث , لطفي محمود الغريري : ٦٧(اطروحة دكتوراه) .

٥- السيميائية وفلسفة اللغة , أمبرتو إيكو , ترجمة : د. احمد الصمعي , المنظمة العربية للترجمة , مركز دراسات الوحدة العربية , ط١ , بيروت , ٢٠٠٥ .

٦- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي , د. ثامر سلوم , دار الحوار للنشر والتوزيع , ط١ , سورية , ١٩٨٣.

٧- الواقعية في الادب , عباس خضر , دار الجمهورية , بغداد ١٩٦٧ .

٨- فيض الخاطر وهو مجموعة مقالات أدبية واجتماعية , احمد امين , مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر , ج٢, ط١ , القاهرة , ١٩٤٠م .

٩- النظرات , مصطفى لطفي المنفلوطي , تقديم : د. صلاح فضل , تحقيق وتعليق : محمد فتحي ابو بكر , الدار المصرية اللبنانية , ط٥ , القاهرة , ٢٠٢٣م .

١٠ – النظرات , مصطفى لطفي المنفلوطي , تقديم : د. صلاح فضل , تحقيق وتعليق : محمد فتحي ابو بكر , الدار المصرية اللبنانية , ط٥ , القاهرة , ٢٠٢٣م .

١١ – تأملات في الفلسفة والادب والسياسة والاجتماع , احمد لطفي السيد , مؤسسة هنداوي, القاهرة , ٢٠١٣م .

١٢ – المجموعة الكاملة لمؤلفات عبد الرحمن شكري , كتاب الاعتراف

١٣ – المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر , ابن الاثير , تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد , دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع , ج١ , القاهرة , ١٩٣٩م .

١٤ – اسرار البلاغة , عبد القاهر الجرجاني , علق عليه: محمود محمد شاكر , دار المدني بجدة ودار المدني في القاهرة .

١٥ – دلائل الاعجاز , عبد القاهر الجرجاني , قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر . مكتبة الخانجي , القاهرة , ١٩٨٤م .

١٦ – منهاج البلغاء وسراج الادباء, حازم القرطاجني , تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة , الدار العربية للكتاب , تونس , ٢٠٠٨م .

١٧ – الخيال مفهوماته ووظائفه , عاطف جودة نصر , الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٨٤ .

١٨ – الخيال الشعري في القصائد العشر الطوال , عمار حازم محمد علي الشاهر , كلية الاداب جامعة الموصل (اطروحة دكتوراه) .

١٩ – حديث القمر , مصطفى صادق الرافعي , دار الكتاب العربي , ط٨ , لبنان , بيروت , ١٩٨٢م .

٢٠ – الخيال الحركي في الادب النقدي , د. عبد الفتاح الديدي , الهيئة المصرية العامة للكتاب , ١٩٩٠ .

٢١ – المؤلفات النثرية الكاملة الكاملة, عبد الرحمن شكري , تحرير وتقديم د. احمد ابراهيم الهواري , المجلس الاعلى للثقافة , الهيئة العامة لشؤن المطابع الاميرية , مج١ , القاهرة , ١٩٩٨م .

٢٢ – قبض الريح , ابراهيم عبد القادر المازني , مؤسسة دار الشعب , القاهرة , ١٩٧١م .

٢٣ – حماري قال لي , توفيق الحكيم , دار مصر للطباعة ,ط١ , مصر , ١٩٤٥م.

٢٤ – جنة العبيط , زكي نجيب محمود , دار الشروق , ط٢ , بيروت , ١٩٨٢م

٢٥ – مقال (حديث الاوز) , جنة الحيوان , طه حسين ؛ مقال (من وحي البحر) , فيض الخاطر , احمد امين : ٢|٢ ؛ مقال (نورا) , في ضوء الرسالة , الزيات : ١٣٨؛ مقال (مدينة السعادة) , النظرات , المنفلوطي .

٢٦ – علاقة الادب بالفلسفة , د. ادريس الذهبي , كلية الاداب والعلوم الانسانية, جامعة سيدي محمد بن عبد الله , ظهر – المهراز – فاس .

٢٧ – علاقة الادب بالفلسفة , د. ادريس الذهبي , كلية الاداب والعلوم الانسانية, جامعة سيدي محمد بن عبد الله , ظهر – المهراز – فاس .

٢٨ – جنة الحيوان , طه حسين , مجلة ثقافة اليوم وكل يوم , العدد(٢٩٩) تشرين الاول , جمهورية مصر العربية , ١٩٨٩م .

٢٩ – سبيل الحياة , ابراهيم عبد القادر المازني , مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة , جمهورية مصر العربية , ٢٠١٢م.